

المنهج البيداغوجي والعولمة

الدكتور طالب مناد

قسم الفلسفة

جامعة الجزائر

الكلمات المفتاحية: المنهج البيداغوجي، التعليم، العولمة، المعرفة، الثقافة، العالمية، الخصوصية، الاتصال، المجتمع، الطفل، التجربة، العلمانية، الديمقراطية، الأمركة، المقاومة.

ملخص:

الغرض من هذا المقال هو توضيح ثلاث مسائل: المسألة الأولى فهي تبيان أن المنهج البيداغوجي عبر مراحل التاريخ السابقة لم يكن ليهمل اتصال نشأة الطفل بمجتمعه.

أما المسألة الثانية فهي تبيان أن المنهج البيداغوجي يتحدد ببُعدين اثنين: بعد علمي حيادي وبعد خصوصي ذاتي.

وأما المسألة الثالثة فهي تبيان أن المعرفة العلمية التي هي معرفة حيادية ذات قيمة عالمية لها قابلية لفكرة العولمة أو لا تتعارض وفكرة العولمة. وأن المعرفة الذاتية (الجانب الخصوصي) هي ليست بمعرفة حيادية وأن معاييرها نسبية تختلف من مجتمع لآخر وليست قابلة لفكرة العولمة بل تقاومها.

ليخلص إلى نتيجة هي أن العولمة ما هي إلا الأمركة التي تعني رفع الخصوصية الأمريكية إلى مستوى العولمة . ولما كان لكل مجتمع خصوصيته التي تميزه عن غيره نجد أن هذه الخصوصية الأمريكية تقاوم اليوم وعبر كافة المجتمعات المتميزة.

أ/ المنهج البيداغوجي وواقع الاتصال بين نشأة الطفل والمجتمع:

البيداغوجية اليوم، كعلم⁽¹⁾، لها مكانة خاصة وجد حساسة في المجتمعات والأمم، يعيرها الأخصائيون كامل العناية، وذلك لأنها الكاشف عن أنجع السبل المحققة لأفضل الطرق التعليمية من حيث تقنيات التحصيل والغايات.. فبقدر سلامة المنهج البيداغوجي تكون سلامة الفرد في الأسرة أولاً ثم في المجتمع والدولة ثانياً ثم في العالمين أخيراً.

البيداغوجية إذن هي علم يركّز ويتساءل عن الشروط الملائمة التي تسهل للتلاميذ والطلاب عملية تلقي أو اكتساب أصناف العلوم، كما يتساءل عن محتوى هذا المنهج الذي يعد المسؤول الرئيس عن بناء الفرد بناءً علمياً واجتماعياً وأخلاقياً وسياسياً، ومن ثمة يتساءل أيضاً عن كيفية تحضير ودور كل من الأستاذ والتلميذ أو الطالب على حد سواء، والذي ينبغي أن يلعبه كل منهما داخل المنظومة التربوية بحكم أنهما عاملان رئيسيان في إنجاح أو فشل هذه المنظومة .. وأكثر من هذا وذلك فهي تتساءل عن الغايات والأهداف التي تتوخاها وتأمل في تحقيقها، والتي لا يمكن بحال من الأحوال أن تنفصل عن المجتمع، عن العالم الذي ينشأ فيه الفرد: عاداته وتقاليده، ثقافته وحضارته أو قل هويته التي بها يتميز عن هوية باقي الأفراد الذين ينتمون هم بدورهم إلى مجتمع غير مجتمعه.

هذا الاتصال بين النشأة والمجتمع يمكن استقراؤه بالعودة إلى التاريخ البشري في هذا الميدان. ففي الحضارة اليونانية مثلاً اهتم الفلاسفة اليونانيون بالمنهج لما له من أهمية في تحصيل المعرفة. من هؤلاء الفلاسفة، على سبيل الذكر

لا الحصر، نذكر الفيلسوف سقراط Socrate (470_399 ق.م) الذي وضع منهجا يقوم على الجدل والتوليد قادرا على أن يتطور بالحوار نحو توليد المعارف. والأمر نفسه كان مع أفلاطون Platon (428_348 ق.م) تلميذ سقراط، ثم أرسطو Aristote (384_322 ق.م) تلميذ أفلاطون، وجميعهم عملوا على أن تكون البيداغوجية (التربية)، إلى جانب العلم، في خدمة غايات أخلاقية وسياسية تحافظ على مكونات المجتمع اليوناني وخصائصه (أفلاطون، 1966)⁽²⁾.

ومع الحضارة الإسلامية كان العمل البيداغوجي (التربوي) يقوم أساسا على الذاكرة والقوة الحسنة ويتنوع بتنوع المربي ذاته : من الفقيه إلى عالم الأصول، إلى المفسر، إلى المحدث، إلى الفيلسوف (الغزالي، أ. 1991) أو (ابن رشد، أ. 1996)⁽³⁾. فيعتمد إما طريقة التلقين والموعظة، وإما الجدل، وإما الحوار المنطقي.. ولا يخلو منهجا في عمومته من غايات تخدم المجتمع المسلم والأمة الإسلامية أو مقاصد الحضارة الإسلامية، مرجعيتهم في ذلك قوله تعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (النحل، 125)⁽⁴⁾. فالغاية هي سبيل ربك، والمنهج الحكمة (عقلية كانت أو حسية ذلك أن العلوم الحسية هي الأخرى موجهة إلى الغاية نفسها) والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. فجميعها إذن لا يخلو من العقل والنقل والحواس ويهدف إلى تحقيق غايات تحفظ هوية المجتمع العربي الإسلامي وتصب جميعها في غاية واحدة شاملة هي سبيل ربك.

ولم يكن الأمر، في الغرب، في العصر الوسيط، ليخرج عن هذه الصيغة المنهجية من حيث الصورة، إذ المنهج كان أيضا في خدمة غايات لا تتفصل عن المكونات الحضارية للمجتمع الغربي أو الأمة المسيحية. فمع القديس أوغستين S. Augustin (354_430 ق.م) مثلا والقديس توما الإكويني S. Thomas D'Auquin (1225_1274 ق.م) نجد أن البيداغوجية كانت دائما في خدمة غايات مسيحية إذ المناهج التربوية التي كانت تقوم على المخاطبة بين الأستاذ والتلميذ أو الطالب فهي

مناهج تعتمد اللغة وتتوجه في نشاطها نحو غاية تبليغ الإيمان ونشره بين أتباعها في أنحاء المعمورة، وهو منهج يعطي الأسبقية للتذكر والقوة ويحرص كل الحرص على أن ينشأ الطفل نشأة مسيحية مهما تعددت المعارف وتنوعت وكان ذلك قائما إلى غاية القرن السابع عشر للميلاد تقريبا.

لكن، والحال هذه، أخذت بعض البوادر التقنية البيداغوجية الجديدة تظهر إلى الوجود. فظهر مثلا على يد الباحث الهولندي المتخصص بإيراسم Q. M. Erasme (1466_1536)، الذي عمل على نشر ما يعرف بالمذهب الإنساني (Humanisme)، عناصر جديدة في المعادلة البيداغوجية، ولأول مرة، وهي عنصر العاطفة وعنصر اللعب في التعليم. ومن بعده كومنيوس J. A. K. Comenius (1592_1670) وهو مصلح بيداغوجي وكاتب تشيكي، متمذهب بالمذهب الإنساني، نادى بضرورة البيداغوجية وللجميع، فانصب على إيجاد فن جديد يساعد على التعليم، ويقوم أساسا على العمل على تفتح قابليات وخصائص الفرد ذاتها. واستجابة إلى مبادئ دينية وإنسانية معا سعى إلى وضع منظومة تربوية تسمح بتطوير وتكوين تلميذا أو طالبا يتميز بالعلم والأخلاق المسيحية التي هي سمة الهوية الغربية عموما. (Site:Pédagogie_ Wikipédia_Histoire,2007) ⁽⁵⁾

وكانت هذه التطورات، لما تحملها من تغييرات جديدة، كانت من الممهدات لما عرف بعصر التنوير في الغرب، والذي جاء عصرا مناهضا للفكر المسيحي للأسباب الفكرية التاريخية المعروفة.

لقد عرف هذا العصر (عصر التنوير) ثورة العقل مما جعل البيداغوجية هي الأخرى تعرف قفزة نوعية في الغرب. فمع جون جاك روسو J.J. Rousseau (1712_1778) الذي وضع الخصوصية في الطفل كمبدأ أساسي ينبغي التركيز عليه إذ يجب النظر إلى الطفل على أساس أنه بالفطرة مخلوق له حاجاته ورغباته الطيبة وأن المجتمع هو الذي يفسدها وعلى البيداغوجي أن يلاحظها ويراعيها ويعمل على تطويرها وفقا لمبدأ "دعه ينمو". وبالموازاة كان روسو يركز على الهدف الرئيسي

للتربية وهو تكوين الرجال الأشداء وفق نظرة جديدة للمجتمع تولدت عن أنقاض النظرة الكنسية له (Site: Pédagogie_Wikipédia_Histoire,2007)⁽⁶⁾.

ثم توالى المحاولات التي أسست - مع اعتماد قانون التجربة في العلوم البيداغوجية- لما يعرف بعلم النفس الطفل.

لكن الذي نريد ملاحظته هو أن المربي بقي يراعي دوما الأبعاد الخصوصية لمجتمعه بالرغم من طغيان السمة العلمية - التجريبية على هذه المناهج التربوية (دفع هذا المنحى بالبعض إلى أن يتهمها بأنها تهمل العلاقات فيما بين المدرسة والمجتمع أي بين العلمي والخصوصي): ففي أوروبا الشرقية التي تبنت فلسفة كارل مارس K. Marx (1818_1883) نجدها تهتم بالبعد الاجتماعي. في حين، في الولايات المتحدة الأمريكية، مع جون ديوي John Dewey (1859_1952)،

(Site: Pédagogie_Wikipédia_Histoire,2007)⁽⁷⁾، وحيث المنهج البيداغوجي عنده يهتم بالتشغيل الجماعي للطفل، نجده، وبالرغم من أنه يهدف إلى تحقيق المنفعة دوما، لا يهمل البعد الإرادي والجماعي للفرد وسعى إلى أن يجعل من المدرسة المكان الذي فيه يتم التأهيل للحياة الاجتماعية، وكذلك كانت التجارب التي قام بها البيداغوجي مكارانكو A.S. Makarenko (1888_1939) رفقة زملائه على تجمعات الشباب المنحرف إذ عملوا على أن يستبدلوا علاقات هؤلاء الشباب المتميزة بالعنف والعدوان بالعلاقات القائمة على التعاطف والتعاون. وهو عمل يؤهلهم لأن يدخلوا في الحياة الاجتماعية الإيجابية بدلا من حياة التشرد والعنف والانفراد أو العزلة. والغاية من ذلك كله هو بناء مجتمع أمريكي سليم وفق المعايير الأمريكية نفسها.

واليوم، ومع التطورات العلمية السريعة، صارت المناهج البيداغوجية تركز أكثر على الطريقة أو الكيفية أي على التقنيات التي توظف في عملية التكوين أو التعليم، ومن ثم فالسبيل إلى تحضير بيداغوجية ما هي أن تفرق بين تلقين

المعارف للتلميذ وبين بنائها: فالمعارف الملقنة تابعة لمفهوم التعليم، بينما المعارف المبنية تستدعي استقلالية الطفل. وبهذا المعنى فالبيداغوجية ليست مهمة الأستاذ فقط بل هي مجموع وسائل الأسرة التربوية - سواء تم وضعها بوعي أو بغير وعي - : الأسرة، والمدرسة، ومراكز الترفيه، والنوادي، وهي أماكن يحتك فيها التلميذ بالمربين (Site:Pédagogie_Wikipédia_Histoire,2007)⁽⁸⁾ ، فينشأ نشأة، ومهما كانت علمية، لا تخرج عن حياة وتقاليد وهوية ذلك المجتمع بحكم هذا التنوع في الاحتكاك.

هذا العرض الموجز لفكرة تطور المناهج البيداغوجية أقرنا على أن المناهج، ومع تطورها، بقيت تتميز دوماً ببُعدين اثنين: بُعد علمي وبعد خصوصي، وأن البعد الخصوصي مستمد من خصوصية المجتمعات نفسها. في ظل هذا كله نتساءل نحن: هل يمكن عولمة المنهج البيداغوجي بالرغم من تمايز الثقافات وحضارات الشعوب؟

ب/البعد العلمي في المنهج وقابليته للعولمة:

على مر التاريخ كانت المجتمعات تعمل على توفير شتى الوسائل والإمكانات لأبنائها حتى تمكنهم من أن ينهلوا من شتى أصناف المعرفة والآداب. والمعارف تتميز بتميز المصدر والموضوع ودرجة اليقين. فهي من حيث المصدر ترد إما إلى الوحي، وإما إلى العقل، وإما إلى التجربة. ومن حيث الموضوع فهي ترد إما إلى ما هو عقلي - ميتافيزيقي كموضوع الله والحرية.. إلخ، وإما إلى ما هو عقلي - علمي كالرياضيات والمنطق، وإما إلى ما هو تجريبي أي المواضيع التجريبية بجميع أصنافها. ومن حيث درجة اليقين فهي متفاوتة في نسبها. والحاصل من هذا كله يمكن تقسيم المعرفة إلى قسمين: معرفة علمية موضوعية، ومعرفة علمية - ذاتية(خصوصية) ولو ادعت الموضوعية. فما هي المعرفة العلمية وما نوعية معاييرها؟

اختلف العلماء والفلاسفة في ضبط مصادر المعرفة العلمية وانقسموا إلى عقلانيين أمثال أرسطو قديما وديكارت R. Descartes (1596_1650) حديثا، وتجريبيين أمثال باكون F. Bacon (1561_1626) وجون لوك J. Lock (1632_1704) حديثا ومن ثمة فاليقين فيها متوقف على طبيعة الموضوع من جهة وعلى اعتقادات العلماء والفلاسفة في الأدوات العارفة من جهة أخرى. فالعقل مثلا، عند أرسطو كعقلاني، أداة ضرورية في مجال المعرفة شريطة أن يكون عقلا خالصا. ولعل أهم مبدأ تقوم عليه العلوم عنده هو مبدأ عدم التناقض ، المبدأ الذي يرتد إليه باقي المبادئ وقد قال عنه: "المبدأ الأكيد بامتياز هو الذي لا يقبل الخطأ. وعليه فهذا المبدأ يجب أن يكون أعرف المبادئ لأننا دائما نخطئ فيما لا نعرف، وأن يكون المبدأ الذي ليس فيه من الشك شيئا، لأن المبدأ الذي لا بد من امتلاكه لمعرفة كل شيء ليس بافتراض. وأخيرا فالمبدأ الضروري معرفته لمعرفة أي شيء يجب أيضا امتلاكه بالضرورة للدخول في أي نوع من الدراسة. ولكن هذا المبدأ ما هو؟ إنه ما سنقول: إنه من المستحيل أن المحمول نفسه ينتمي ولا ينتمي إلى نفس الموضوع، في نفس الوقت وتحت نفس العلاقة." (Aristote, 1940)⁽⁹⁾.

ولعل أهم ما يلاحظ في هذا النص الصريح هو أن مبدأ عدم التناقض الذي ترتد إليه كل المبادئ العقلية ، والذي هو مبدأ لا يقبل الخطأ وأنه المبدأ الضروري لمعرفة كل شيء هو مبدأ فطري وليس بافتراض ، ولذا فعلى كل واحد معرفته معرفة تامة لأن الخطأ يكون فيما لا نعرف، ومن ثمة فمصدر المعرفة عند العقلانيين هو العقل الخالص.

أما التجريبيون، فقد أجمعوا على أن مصدر المعرفة هو التجربة أي البديهة الحسية، ودور العقل هو تخليص المعارف التي تتبدى منها. فلا معرفة إذن من دون تجربة. لكننا وجدنا من الفلاسفة الكبار من جمع بين المصدرين فجاءت المعرفة نتاج تكامل بين العقل والتجربة: إنه الفيلسوف إيمانويل كانط E. KANT (1724_1804) الذي يرى أن المعرفة تبدأ مع التجربة أي أن بداية طريق المعرفة

الحس. لكن هذه الأحاسيس تبقى مجرد مواد خامة ما لم تتدخل ملكة التصور كملكة تشكيل ثم ملكة الذهن كملكة تنظيم وتشريع وأخيرا ملكة العقل كملكة إضفاء الضرورة على المعرفة وتوسيعها، ولهذا قال كانط: "من دون الحساسية Sensibilité، لا شيء يصير معطى ومن دون الذهن Entendement لا شيء يصير تصورا. فالتصورات من دون محتوى فارغة، والحدوس من دون مفاهيم عمياء." (Kant, E.s.date)⁽¹⁰⁾.

والمعرفة عند كانط قد تكون معرفة عقلية قبلية بحتة، كعلم الرياضيات، لكنها تركيبية في نظره وقابلة للتجربة.

فإذا عرفت هذا، ثم عرفت مع ديكارت: "أن العقل الصريح هو أعدل قسمة كانت بين الناس" (Descartes, R.1945)⁽¹¹⁾ ذلك لأنه مبادئ فطرية سليمة يتقاسمها الناس جميعا ويحتكمون إليها من غير تنازع أي إلى ما هو فطري إذ لا يمكن لأحد أن يعارض قول القائل: الكل أكبر من الجزء مثلا. وقد عرفت كذلك أن المعرفة التجريبية هي الأخرى تقوم على البديهة الحسية التي هي من أقوى المعارف ويمتلكها جميع الناس، تقرر لديك أن المعرفة العلمية هي معرفة بشرية حيادية عالمية Universelle ، لأنها وبكل بساطة تحتكم إلى معايير هي الأخرى حيادية عالمية يتقاسمها البشر جميعا (البديهة العقلية والبديهة الحسية)، مما يجعلها تفرض نفسها فرضا على العقل البشري ويقبل بها كل عاقل، سليم الحواس، حيثما كان ومهما كان لونه أو عرقه أو دينه.. فهي المعرفة التي يمكن تسميتها بالمعرفة الضرورية أو العلم الضروري سواء أكانت ضرورة عقلية أو ضرورة حسية.

فالبعد العلمي الحيادي في المنهج إذن هو محل اتفاق العلماء والعقلاء مهما تنوعت جنسياتهم وانتماءاتهم العرقية والثقافية، وهو يهدف – إذا لم ييسس – إلى خدمة البعد الإنساني من غير أن يميز بين أبيض وأسود أو عرق وآخر.. وهذا ما عبّر عليه أحد الأطباء بقوله لأحد مرضاه: "لا عرقك ولا دينك الذي أريد معالجته ولكن مرضك". ولهذا نجد المنظمات العالمية العلمية المتخصصة التابعة لمنظمة

الأمم المتحدة قد حققت (وهذا عكس منظماتها الأخرى) بعض النجاحات عبر العالم وقربت بين الأمم والشعوب ، وهي منظمات لم تعد تعترف بالحدود الجغرافية ولا العرقية بل صارت تؤمن بالمجتمع أو القرية العالمية : "ونجاحها مرده أولاً إلى الطابع التقني للمواضيع المتناولة، ثم، في الواقع، إلى كون المنظمات الدولية المتخصصة التابعة للأمم المتحدة تعمل في ميادين حيث القيمة La valeur مسلم بها من طرف الضمير العالمي." (Perriw,F.1966)⁽¹²⁾ فمن منا يعارض قيام منظمة عالمية للصحة كمنظمة OMS مثلاً؟ أو أن يكون عضواً فعالاً فيها؟ أو أن يرحب بها في موطنه شريطة أن تلتزم الحياد العلمي أي على أن لا توظف توظيفاً في غير موطنها؟

إن، مما سبقن يمكننا القول أن المعرفة العلمية لا عرق ولا موطن لها بل هي إنسانية بجميع المقاييس العلمية، ومن ثمة فالمنهج في بعده العلمي جاز وسهل بل من المصلحة عولمته إذا أثبت نجاعته..

هذا عن المعرفة العلمية أو البعد العلمي في المنهج. فماذا عن بعده الذاتي (الخصوصي) أي الثقافي؟ فهل يمكن أن يسري عليه ما سري على بعده العلمي؟

ج/البعد الذاتي في المنهج ومقاومته للعولمة:

لقد أثبت لنا التاريخ أن الشعوب اختلفت وتختلف بحكم الموقع والمناخ كما يشير إلى ذلك علماء الاجتماع ومنهم ابن خلدون (ابن خلدون، ع. 1979)⁽¹³⁾ ومن بعده مونتسكيو Montesquieu وآخرين، فضلاً عن العرق نفسه. واختلافها يفضي من دون شك إلى اختلاف في العادات والتقاليد والثقافات. أما على مستوى القانون القرآني فالأمر فصل فيه بالكيفية التي لا تدع مجالاً للشك أو التأويل أو لأن تكون حمالة أوجه وهذا في قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مِنْ رَحْمٍ رَبِّكَ وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ." (سورة هود، الآية 118، 119)، ومن هنا يصح منا القول: إن

المنهج في بعده الذاتي(الثقافي) مطالب بأن يراعي هذا التنوع والتغير والتمايز فيما بين الشعوب، لأن الثقافات لا يمكن إزالتها واستبدالها بغيرها كلية، فهي شبيهة بالفطرة التي تأبى الزوال، لكنها مع ذلك فهي مرنة تحمل في ثناياها قابلية التطور والتغير نحو الأفضل من دون قطيعة مع الأصل، لأن في القطيعة نية إن لم يكن فناء، ولهذا حق أن نقول أيضا إن الثقافة أشبه بالنسق أو هي نسق يرفض العناصر التي لا يمكنها أن تتجانس أو تتكيف مع مبادئه العامة. بل قد بلغ الحد بالثقافة إلى أن شكلت المعرفة التقنية نفسها من خلال المنتج الصناعي وصبغتها بصبغتها. ألا ترى مثلا أن الشكل الظاهري للمصنوع يكشف لنا في الكثير من الحالات عن هو وراء المصنوع، هذا فضلا عن الصناعات التقليدية التي هي بمثابة الحدود الجغرافية بين الشعوب وحضاراتها.

إذا تقرر هذا قلنا إن البعد الثقافي في المنهج ، مع ما فيه من الموضوعية، هو ذاتي، وهذه الذاتية هي التي تضيف عليه صبغة الخصوصية التي تأبى الذوبان ، وهي مكنم المقاومة أبداً، وهي المحددة لهوية الشعوب.

ومعاييرها بهذا تختلف باختلاف الشعوب وثقافتاتها. فهي معايير، مهما بدت موضوعية، تبقى ذاتية(خصوصية). وقد نجد من مظاهر الثقافات ما يصل بها الحد إلى التعارض أو التناقض ذلك أن ما نجده في مجتمع ما يمثل مفخرة حضارية ، نجده في مجتمع آخر، يمثل انحلالا وتفسخا أخلاقيا كبيرا.

لقد حدث أن شاركنا في المؤتمر الدولي العاشر فيما بين الثقافات الذي جرى تحت رعاية منظمة اليونسكو UNESCO بالجزائر العاصمة عام 2005، وقد حضرنا ، من جملة ما حضرنا، إلى مداخلة قدمها أحد الباحثين البلجيكيين بارتوانس كريستوف Parthoens Christophe تحت عنوان: من زولا إلى أتاتورك: قرية إسلامية بفالوني. (Parthoens, Ch.2005) ⁽¹⁴⁾ وهي نتاج عمل ميداني قام به الباحث، ومن جملة ما لاحظ الباحث أن هذا المجتمع الإسلامي الصغير(القرية) المتواجد بفالوني والذي هو من أصل تركي، بالرغم من تواجده الطويل في المنطقة، فقد بقي محافظا

على تماسكه وعاداته وتقاليده التركية الإسلامية. فلا هو ذاب في الحضارة الغربية ولا الحضارة الغربية استطاعت أن تبتلعه. وما هذا إلا نموذج من النماذج الأخرى المتواجدة هنا وهناك في العالم الغربي، ولهذا سمحنا لأنفسنا بالقول: إن الثقافة هي بمثابة الحدود الجغرافية للدول أو أكثر. وكان من جملة الأسئلة التي قدمت لهذا الباحث أن سألته: إذا كان الحال كذلك فلماذا يسعى الغرب اليوم عبثاً إلى أن يلزمننا اتباع ثقافة هي ثقافته وليست منا في شيء؟ أيعقل أن يحافظ هو على ثقافته في الوقت الذي يمنع الآخر من القيام بالفعل ذاته، ثم يعمل على غزوه ثقافياً بشتى الوسائل، بما في ذلك استخدام القوة المادية (العسكرية)؟ ألا يدرك أن في فعله هذا إقصاء للآخر وقضاء على ذاتيته أو وجوده؟ فكان جواب الباحث أن هذا عمل ميداني وهذه نتائجه.

إن هذا لمن مفارقات الحداثة التي صنعت هذا الغرب اليوم، الحداثة التي قامت على العقل والعلم والحرية، هاهي اليوم تلتف على نفسها لتلتهمها تماماً كما تفعل في عراق الحضارة وفلسطين ولبنان الصمود. ألم تنجب الانتخابات في فلسطين (حماس) بكل المقاييس الديمقراطية وبشهادة المراقبين الدوليين؟ فإذا كان المولود غير الذي يريدون انقلب الديمقراطية على عقبيها، وعوقب الشعب الفلسطيني على اختياره أشد العقاب. فالديمقراطية ديمقراطية إذا حققت الغايات التي يرجوها الغرب، وهي إرهابوقراطية إذا حققت حريات وذاتيات غير التي يرجون؛ وقد أشار ألان توران Alain Tourain إلى هذا التدمير الذاتي لما قال: "إن مأساة حداثتنا هي أنها تطورت وهي تناضل ضد نصفها ذاته، مطاردة الذات باسم العلم، نابذة كل إسهام المسيحية الذي ما يزال يحيى في "ديكارت" وفي القرن التالي، مدمرة باسم العقل والأمة تراث الإثنية المسيحية ونظريات الحق الطبيعي التي ولدت إعلانات حقوق الإنسان والمواطن على جانب الأطلسي، بحيث أننا ما نزال ندعو حداثة ما هو تدمير لجزء أساسي منها." (توران، أ. 1998) (15).

إن البعد الذاتي في المنهج بعد خصوصي، متميز بتميز الشعوب والثقافات ولا يمكن بحال من الأحوال تجاوزه إذ تجاوزه يحدث نوع من الضياع والنتية، ذلك أن المجتمع الذي يفقد مرجعيته، معايير الضاربة في الماضي يصير مجتمعا هداما يهدم ذاته من الداخل قبل أن يهدمه غيره من الخارج بل يصل الحال بالفرد فيه إلى الحد الذي يجعله يفضل وطن غيره على وطنه فيفقد حب الوطن، ومن فقد حب الوطن صار له الوطن أول خصومه.. ألم يسأل ذات يوم فرحات عباس عن الجزائر بين الوديان والجبال ولم يعثر عليها..؟ ألم ينتج ذلك عن فقدانه لبعده الذاتي؟ وأن تداركه للأمر فيما بعد لم يكن إلا باسترجاعه لهذا البعد؟

صحيح أن الثقافات والشعوب تتقاطع وتتقارب في أشياء كما تتباعد في أخرى، لكن تبقى سمة التمايز حاضرة في كل شيء حتى فيما تقاطعت فيه.. فما هي الديمقراطية مثلا اليوم، فعلى الرغم من أن الكل يجمع على أنها منهاج سياسي في التداول على السلطة إلا أن السياسيون يرون أن لكل بلد خصوصياته، ومن ثمة فلكل بلد منهجه الديمقراطي الخاص به، ولا يمكن سحب منهج بعينه على كل المجتمعات والشعوب مثلما تحاول أمريكا فعله اليوم عبثا. لكن الملفت للنظر هو أن مفهوم الديمقراطية حذّه لا يأتي إلا من الغربيين، فهم المرجع الوحيد فيه، فلا مجتمع ديمقراطي إلا ما زكته هذه المرجعية! والغريب أن الديمقراطية لم يكن ينظر إليها إلا في ظل المجتمع العلماني (بفتح العين). أي أن المجتمعات الإسلامية هي مجتمعات معادية للديمقراطية رغم بنائها على مبدأ الشورى في الأمور كلها. لكن ماذا عن الأحزاب السياسية المسيحية التي تظهر هنا وهناك في الغرب؟ ألم يسلم لها بأنها أحزاب مسيحية - ديمقراطية؟ ثم ماذا عن الديمقراطية الصهيونية؟ ألم تكن الديمقراطية في نظر الغرب ذات بعد وطني وفقط؟ فلماذا يصير الغرب اليوم على أن الصهاينة هم البلد الديمقراطي الوحيد في المنطقة بالرغم من أن الصهاينة يلفظون كل من عارض مشروعه الصهيوني حتى ولو كان مواطنا حتى النخاع وهو الأمر الذي يحدث لممثل الحزب الديمقراطي الحر في الكنيست بشارة

الخوري؟ والذي يحدث في العراق اليوم أليس في حل مؤسسات الدولة دعوة إلى ديمقراطية الطوائف (ديمقراطية القتل والهدم) على حساب الوحدة والأمة والعروبة بحجة أن هذه الأخيرة منافية لحدّ الديمقراطية في نظر الغرب (أمريكا)؟

إنّ إذا صح للصهيوني أن يكون ديمقراطيا بصهيونيته ألا يصح للعربي أن يكون كذلك بعروبيته؟! وللمسلم بإسلامه؟! وأن الديمقراطية تنمو من الداخل ولا تستورد.

وماذا أيضا عن العلمانية (بكسر العين)؟ لماذا يراد سحبها على العالم كلّ؟ فالعلمانية (بفتح العين) غير العلمانية (بكسر العين). فإذا كانت العلمانية محط قبول الحضارات والشعوب لأنها حق، ومصدر للعلم واليقين (تمثّل الجانب العلمي في المنهج)، فإن الأمر بالنسبة للعلمانية التي تعني اللاتكنية على غير ذلك إذ كيف يصح سحب ما وجد في مجتمع نتيجة تطورات تاريخية معيّنة، تعود إلى مرجعيات معية، على مجتمعات أخرى مرجعيتها التاريخية تختلف كل الاختلاف عن تلك المرجعية؟ بل وأكثر من ذلك فحتى دول الاتحاد الأوروبي، وعلى رأسها فرنسا العلمانية، رغم المرجعية التاريخية المتقاربة تهتم بالمحافظة على بعض خصوصياتها وتأبى التمازج في كل شيء.

وقد تبين لنا أن المنهج البيداغوجي لا يخلو من وسائل وغايات ذاتية، تساءلنا عن مفهوم العولمة وعن مرجعيتها، ومن ثم عن المنهج الذي يراد عولمته، والغايات المتوخاة منه؟ وهل يحمل في ثناياه قابلية العولمة أم قابلية المقاومة والرفض؟

لا يختلف اثنان أن المسيطر اليوم على العالم والذي له اليد الطولى في كل شيء تقريبا هو أمريكا أو الولايات المتحدة الأمريكية، فهي تضرب من تريد وتمنع الضرب عن تريد وتجعل - في ظل حرب المفاهيم القائم على التضليل - الحق باطلا والباطل حقا كلما خدمها ذلك: هذا يعني أن العولمة ما هي إلا الأمركة،

وعلى العالم أن لا يرى إلا ما تراه الأمركة مثلها مثل فرعون بالأمس الذي ادعى الألوهية فنقل عنه القرآن الكريم قوله: "فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى." (النازعات، 24) (16) وقوله: "قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ." (غافر، 29) (17) ومنه فعولمة المنهج هو عولمة المنهج الأمريكي. ولما كان ذا بعدين: بعد موضوعي علمي وبعد ذاتي خصوصي، فإن هذه العولمة لا تخلو من أمركة العالم في بعده الذاتي باسم الديمقراطية التي لم تعد سوى ريشة رسام في يد جورج بوش يرسم بها ما شاء من المجتمعات وعلى الوجه الذي يريد. وذلك لأن الواقع يكشف أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تعبر أدنى اهتمام للمنهج في جانبه العلمي بل تحارب من كان جادا في اكتسابه. بيد أننا نجدها في جانبه الذاتي ترمي بكل ثقلتها وقد امتدت بها الفرعنة إلى حد السعي إلى أمركة الإسلام، بدءا من فرض مناهج معينة على الدول الإسلامية، وهي تعمل على التخلص من الكثير من المفاهيم الإسلامية وربما في حذفها حتى من القرآن الكريم إن استطاعت إلى ذلك سبيلا؛ من هذه المفاهيم مفهوم الجهاد على سبيل المثال لا الحصر.

الجهاد كما تحاول أن تظهره لنا أمريكا وللعالم هو الإرهاب. ولما كان الإرهاب هو العدو الذي ينبغي استئصاله، واستئصاله يقتضي استئصال مفاهيمه، فما هي تسعى بكل الوسائل إلى استئصال كل ما له علاقة بهذا الموضوع من مناهجنا، بالرغم من أنها تدرك جيدا أن الجهاد في الإسلام هو غير الذي تظهره. فهي تدرك أن مفهوم الجهاد في الإسلام هو الروح التي يتمحور حولها نشاط المواطن المسلم على جميع الأصعدة؛ فهو جهاد نفس قبل أن يكون جهاد حياة، وهو جهاد حياة قبل أن يكون جهاد مقاومة أو موت من أجل الحياة: فهو جهاد نفس مصداقا لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا." (العنكبوت، 69) (18) وجهاد حياة أي جهاد علم وعمل: "وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ." (التوبة، 105) (19) وجهاد مقاومة أو موت من أجل الحياة أي جهاد استشهاد ومقاومة في سبيل الهوية والوطن وردا للاعتداء: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفَاتِنُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ." (البقرة، 190) (20) وعليه فأى الرأيين أفضل:

أن تتولّى المؤسسة الرسمية حدّ هذه المصطلحات وضبطها ضبطاً شرعياً سليماً يتولاه أهل الذكر، أولي النهى والبصائر فتحدث في المجتمع التغيير الإيجابي والفعال.

أم أنها تترك الأمر لغير أهله فيؤول تأويلاً يجلب للجميع الفتنة والدمار، ويجد فيه من يتربص بالمجتمع الدوائر، في الخارج قبل الداخل، ضالته التدميرية، مع العلم أن المفاهيم هي الصورة النظرية المجردة لمضامين هوية المجتمعات، والقضاء على هذه المفاهيم قضاء على الهوية نفسها.

ولما كانت العولمة (الأمركة) تسعى إلى استئصال ذوات الآخرين واستبدال ذاتيتها بذواتهم، فإن الآخر، وقد وجد نفسه مهدداً في كيانه ومستقبله وأصبحت المسألة، كما عبّر عنها شكسبير، "أن تكون أو لا تكون" تحرك هذا الآخر وأخذت المقاومة تتشكل هنا وهناك وفي أشكال متعددة: سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية.

بل وحتى على مستوى الغرب ذاته (الأوروبي)، فإن المؤسسات الدولية رفضت أن تغزى ثقافياً، وهي تعمل على أن تحافظ على ذواتها، بل ولم يكن حتى تشكلها في اتحاد أوروبي اقتصادي لينسيها ذواتها وخصوصيتها فأقرت حق التنوع الثقافي للشعوب. ثم ألم يرفض الاتحاد الأوروبي عضوية تركيا إلى حد الساعة وذلك لا شيء إلا لاختلاف في الثقافات (وهو يطالبها بأن تتخلى في كل مرة عن جزء من هويتها عبثاً)، ولأن المجتمع الديمقراطي المسيحي يقلقه الاتحاد مع المجتمع الديمقراطي الإسلامي. فالمسيحية في الاتحاد الأوروبي هي من أهم عناصر هويته، والإسلام في نظرهم خطر على هذه الهوية بدليل أن الكتلة المسيحية دون الكتلة الاشتراكية في الاتحاد الأوروبي هي التي تعارض هذا الانضمام إلا بشروط، ومن شروطها أن تتخلى تركيا عن "إسلامها" ولو جزئياً.

أما في مواجهة الأمركة، فالاتحاد الأوروبي ما هو إلا ضرب من ضروب المقاومة والمعارضة لفكرة أمركة العالم خاصة في بعده الثقافي ذلك أنه قد تم، تحت مظلة (اليونسكو) إقرار الإعلان العالمي للتنوع الثقافي في يوم 02_11_2002 بباريس لغرض وقف المد الثقافي الأمريكي وهيمنته، الأمر الذي دفع بأمريكا إلى مراجعة أوراقها والعودة من جديد إلى (اليونسكو) يوم 23_09_2003 وكانت قد انسحبت منها في 1984 سعياً منها لوقف هذا الإقرار، لكنها لم تجد من يقف إلى جانبها غير حليفها الدائمة ورفيقة دربها إسرائيل.

وأما ما يجري في المشرق عموماً والعراق خصوصاً فهي مقاومة عسكرية هائلة وشرسة لتحطيم المشروع الأمريكي العامل على طمس هويات الشعوب ونهب ثرواتها وفي مقدمتها الثروات البترولية وتحت غطاء العولمة المتمثلة في نشر فكرة الديمقراطية وتحرير الشعوب ومحاربة الإرهاب وتحت أشكال أخرى من التمويهات. أو ما جرى ويجري في لبنان وفلسطين وفي دول أخرى وقد أخذت على عاتقها إفشال المشروع الأمريكي أو الهلاك دونه.

وما يجري كذلك في أمريكا الجنوبية وعودة اليسار المناهض لكل مرامي أمريكا المتمثلة في الهيمنة والاستبداد لدليل آخر على مناهضة العولمة ومقاومتها بشتى الوسائل، فضلاً عن المنظمات الاقتصادية والتكتلات الدولية التي تقام هنا وهناك في وجه هذا النوع من العولمة، أو صرخات الوطنيين وصرخات النقابات العمالية في شتى أنحاء العالم.

والذي نريد أن نذكر به في الأخير هو أن العلم الحق رغبة كل البشر ومطلوب الأخذ به — كما يقول الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي — أنى كان ومن أي جنس جاء. (الكندي، أ.، 1950) ⁽²¹⁾.

وأما ما كان خصوصياً فسببى كذلك مادام أهله قائمون وكل محاولة تسعى إلى القضاء عليه تجد مقاومة شرسة لا مثيل لها ذلك لأن القضاء على الخصوصي

قضاء على المتصف به نفسه. فالعولمة بهذا المقياس هدم للتعددية الخصوصية ودعوة لهيمنة الخصوصية الأمريكية ولهذا كانت المقاومة وتكون.

المصادر والمراجع:

1. الأسلم أن البيداغوجية اليوم لا تحد بعلم التربية بل بعلوم التربية أي بجمع العلم وليس بمفرده وذلك لأنها محصلة جملة من العلوم منها علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم البيولوجيا، وعلم الاقتصاد، والفلسفة... إلخ.
2. أنظر مثلاً: محاورات أفلاطون، عربيها عن الأنجلزية زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1966. أو كتابه الجمهورية أو كتاب السياسة لأرسطو..
3. أنظر مثلاً: أبو حامد الغزالي، كتاب الإحياء في علوم الدين، دار الثقافة، الجزائر، 1411هـ - 1991م. أو ابن رشد، مناهج الأدلة في عقائد الملة، تقديم وتعليق د/ محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1996.
4. القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 125.
5. Voir Site: Pédagogie_ Wikipedia. Htm_ Histoire.2007.
6. Ibid, (site: pédagogie).
7. Ibid, (site: pédagogie).
8. Idem (site: pédagogie).
9. Aristote, La métaphysique, Liv. IV, Trad. Alexis et Charles Zevot, Ebrand, Librairie Editeur, Paris, 1940, P. 114.
10. Kant E., Critique de la raison pure Trad. Tremesaygues et Pacaud, Ed. P.U.F., Paris, P. 76.
11. Descartes R., Discours de la méthode, suivis de: les passions de l'ame, Booking international, 1995, P. 15.
12. frank Perriw, Le dialogue des nations dans la guerre et dans la paix, In Michel Bon ,Le dialogue et les dialogues, centurionm Paris, 1966, P. 106.
13. بن خلدون ، المقدمة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 14 وما بعدها.

14. Parthoens Christophe, De Zola a Ataturk: un village musulman en wallonie, X* Congrès international de L'ARIC, Organise par U. d'Alger et l'Assossiation internationale de recherche interculturelle _ 02_06 Mai 2005, Programme du Congres, P. 9.
15. ألان توران، نقد الحداثة (ولادة الذات)، القسم الثاني، ترجمة صباح الجهم، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1998، ص 11.
16. القرآن الكريم، سورة النازعات، الآية 24.
17. القرآن الكريم، سورة غافر، الآية 29.
18. القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية 69.
19. القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية 105.
20. القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 190.
21. الكندي ، رسائل الكندي الفلسفية(رسالة إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى)، تحقيق الدكتور عبد الهادي أبو ريذة، 1950، ص 98 وما بعدها.